حول فلسفة نيتشه

ثورة على القطيع

للأستاذ زكريا إبراهيم

لم يقتصر نيتشه على مناهضة أصحاب النزعة العاطفية المثالية ، بل لقد حاول أيضاً أن يناهض أصحاب النزعة العقلية المتطرفة ؛ فحمل على « العلماء » الذين يؤمنون بالعلوم الوضعية ويرون فيها شفاء ومَقْمعاً للفكر الإنساني ، وحمل أيضاً على « الفلاسفة » الذين يؤمنون بالعقل ويعتبرونه المعيار الوحيد للحقيقة . وبين هؤلاء الذين لا يصدرون في تفكيرهم إلاّ عن « العقل » ، وأولئك الذين لا يصدرون إلاّ عن « القلب » ، وقف نيتشه موقف أستاذه شوپنهور ، فجعل الصدارة للارادة ، وقدّم القوّة على الفكر والعاطفة ، فالإرادة عند نيتشه هي جوهر الوجود ، وكلّ ما في الوجود إنما هو تعبيرٌ عن هذه الإرادة

غير أنّ الإرادة قد تُفْهم إمّا بالمعنى الفردي أو المعنى الجنسي ؟ وهذا المعنى الأخير هو ذلك الذي يحرص عليه الديموقراطيّون والاشتراكيّون ، فيُخْضعون الفرد للجماعة . ولكنّ نيتشه يتمرّد على « غريزة القطيع » ، ويعلن سيادة الفرد المطلقة في نظام الطبيعة ، على نحو ما أعلن رجال عصر النهضة

وقد انقسم عصرنا الحاضر كلّه إلى طائفتين : طائفة الاشتراكيّين ، وطائفة الفرديّين ؛ وهاتان الطائفتان قد تشكّلتْ كلٌّ منهما في نهاية الأمر بصورة « إنسانية » . أمّا النزعة الرومانتيكية فإنها في الواقع قد اتجهت إلى عبادة الشخصيّة ، وإنْ كانت قد قدّست على وجه الخصوص تلك التي لا تخضع إلاّ لقانونها فقط ، أعني تلك التي لا تتقيّد إلاّ بالشريعة التي استنّتْها قوّتُها الخاصّة ، مُتَمَثِّلةً في الهوَى المنطلق ، أو الإرادة التي لا ضابط لها . وقد ترتّب على هذه النزعة ، أنْ ظهرت الفردية المتطرفة التي أفضت في النهاية إلى ظهور المذاهب « الفوضوية » . ووُجِدَتْ في الوقت نفسه نزعة رومانتيكية اشتراكية وديموقراطية ، على يد پيير ليروه ، وڤيكتور هيجو ، وجورج صاند ، وميشيليه ؛ وهذه أشاعتْ في المجتمع مبادئ السعادة ، والحرية الشاملة ، والإخاء ، والمساواة . إلى آخر تلك المبادئ التي نادت بها الثورة الفرنسية . أما نيتشه فقد رأى في كل هذه النزعات انحرافاً وانحلالاً ، ولذلك فقد عاد إلى النزعة الفردية البدائية ، ونَصَبَ « الأنا » أو الذات ، ضد المجتمع بأسره . وبدلاً من تلك الديموقراطية التي تتهدّد بالمساواة بين الجميع ومحو كل الاختلافات والفروق ، أو تلك الاشتراكية الشعبية التي تُفْنِي الفرد لحساب المجتمع ، نجد نيتشه يدعو إلى أرستقراطية جديدة يعارض بها كل تلك المذاهب الديموقراطية والاشتراكية والفوضوية ، ويعتبرها سبيل الخلاص الوحيد ، فيستبدل بالرجل المتوسط المساوى لغيره من الناس ، الرجل الكامل أو « الإنسان الأعلى » Übermensch والرجل المتوسط الذي يحمل عليه نيتشه هو ذلك الإنسان

ولابد أن يكون لهذا السر أثره الفظيع كذلك في ثورة أبي العلاء وتبرمه بالدنيا وتجهمه للحياة وضيقه بالناس ، وتسفيهه لمعتقداتهم التي لم ينتفع بها أهله من أبيه في علاقاتهم بهذا الفتى الأعمى المحروم من العون ، المتقلب في البلاد ، الضارب بين قرى الشام ، المعجب بأساتذته من رهبان ذلك الدير باللاذقية يدرس عليهم الإنجيل والتوراة ، والفلسفة ، كما درس على أبيه الرؤوف الرحيم البار القرآن واللغة والتفسير والفقه والعروض ، وكما درس طرفا لا يعتد به من الحديث على هذا الرجل المدعو يحيي بن مسعر[1] الذي لم يستطع أن يشعر قلب أبي العلاء حلاوة الإيمان ، فأسلمه بجهله إلى الشك والحيرة

ترى ! هل يستطيع أحد أن يكشف لنا عن ذلك السر ؟

« للحديث بقية »

دمنهور

زكريا إبراهيم

---

(١) اليمني : أبو العلاء وما إليه ص ٥١

الوضيع الذى ينساق مع القطيع ، على طريقة خِرَاف بانورج[1] Les moutons de Panurge . أما ذلك الذى ينطوى على نفسه ، ويفزع إلى الوحدة لكى يعيش كالنجم الغارق فى السكون ، فهو فى نظر نيتشه الرجل القوى المبدع : « إن الأحداث العظيمة لا تنشأ إلا بعيداً عن الجماهير والأمجاد ، فكل من ابتدعوا القِيَم الجديدة قد انتبذوا لأنفسهم مكاناً قصيًّا ، على منأىً من العامة ، وبعيداً عن الأمجاد » والرجل الممتاز إنما هو ذلك الذى يهرع إلى الوحدة ، ويتفرد بنفسه ، لكى يحيا كتلك « الدوحة التى تشرف على البحر فى سكون ، وتصغى إلى هديره فى صمت » !

لقد يصرخ به القطيع قائلاً : « إن من فتش فقد ضل ، وما الوحدة إلا خطيئة » ، ولكنه يمضى غير آبه بصوت القطيع الذى يهيب به ، لأنه يعلم أن صوته نداء العبودية يستصرخه أن يبقى ، وصوت الوحدة نداء الحرية يستصرخه أن ينطلق ! أجل ، إن الرجل الممتاز لم يُخلَق لكى يسير وراء القطيع ، بل لكى يكون ثورة على القطيع ، وناراً حامية تُصلَى بها الجماهير ! فليس على الرجل الممتاز أن يخضع لحكم العامة ، بل عليه أن يخضع لحكم نفسه فحسب . وليس من واجب الرجل المبدع أن يأخذ بما يُمليه عليه قانون السواد الأعظم ، بل إن من واجبه أن يتخذ من إرادته قانوناً له ، فيشرّع لنفسه الخير والشر . وليس ينبغى للرجل القوىّ أن يمد يده متسرّعاً لمصافحة من يلتقى به فى طريقه ، بل ينبغى له إذا التقى بتلك الحشرات التى يتحلّب ريقها بالسم ، أن يسارع إلى وحدته ، حتى لا تمتد إليه السموم الخبيثة التى تنفثها حشرات المجتمع !

فالرجل الممتاز إذن هو ذلك المتوحد الذى يعتزل الناس لكى يعيش بعيداً عن المجتمع ، منطوياً على نفسه ؛ وأما الرجل الضعيف فهو ذلك الذى يشعر بحاجته إلى الاجتماع بالناس ، والانضمام إلى القطيع . ولذلك يقول نيتشه : إن الأقوياء ينزعون إلى الانفصال والتفرّد ، على حين ينزع الضعفاء إلى الاتحاد والتجمع . والرجل الممتاز — كما يقول زرادشت — هو ذلك الذى ينفر من المجتمع ، ويأنف من الجماعة ، ويحلّق بجناحيه فوق السحاب ، فترمقه أعين الحاسدين ، وترشقه نظرات الحاقدين . وليس بدْعاً أن يثور الناس على مثل هذا الرجل ، فإن من دأب العامة أن تتمرد على كل رجل مبدع يعزف بنفسه عن غمار الناس : « إنك لتعلو عليهم وتسمو فوقهم ، ولكنك كلما ازددت علوًّا ، ازددت صَغاراً فى أعينهم الحاسدة . أما ذلك الذى يحلّق بجناحيه فوقهم ، فليس أبغض إليهم منه » !

ولكن ، أليس الإنسان حيواناً اجتماعياً يميل إلى التجمع بفطرته ، وينفر من العزلة بطبيعته ؟ ألم يَقُلْ أرسطو إن حياة العزلة لا تتهيأ إلا لإلٰه أو حيوان ؟ إذن فكيف يزعم نيتشه أن « الرجل القوىّ » هو « الرجل المتوحّد » ؟ وكيف يذهب إلى أن الضعفاء هم الذين ينزعون إلى الاتحاد والتجمع ؟ . يجيب نيتشه على هذا فيقول : إن الإنسان حيوان مفترس متوحد ، فالأقوياء الذين هم سادة النوع البشرى يميلون بالضرورة إلى العزلة والتفرُّد ، وينفرون من كل نظام يضطرهم إلى الاتحاد والتجمع ، وبعبارة أخرى فإن الحياة الاجتماعية فى نظر نيتشه معارِضةٌ للطبيعة ، لأن الإنسان حيوان غير اجتماعى بفطرته . وإذا كان الأقوياء قد يكوّنون مجتمعاً فى بعض الأحيان ، فإن ذلك يرجع إلى رغبتهم فى القيام بحركة عدوان مشترك ، يرضون بها إرادة السيطرة التى توجد لديهم جميعاً . ولكنّ شعورهم الفردى فى معظم الأحيان ، ينفر من تلك الحركة المشتركة ، ويتأذّى من ذلك العمل الجمعى . أما الضعفاء فإنهم يرتّبون أنفسهم فى طبقات متلاصقة ، إرضاءً للحاجة التى يشعرون بها نحو هذا التجمُّع ، وبذلك تَلْقَى غريزتهم لذتها القصوى الكاملة

ولكن ، هل من الحق أن التجمع دليل الضعف ؟ أليس التاريخ الطبيعى شاهداً على فساد هذا القول ؟ ... إن الواقع أن الحيوانات التى توجد لديها « غريزة القطيع » قد استطاعت

---

(١) تتلخص قصة خراف بانورج (وهو شخصية هامة من الشخصيات التى نجدها فى مسرحية لرابليه) فى أن بانورج قد اشتبك فى صراع مع التاجر دندينو Dindenaut الذى أهانه إهانة كبيرة ، فأراد أن يثأر لنفسه منه ، ومن ثم فقد ابتاع منه واحداً من خرافه ، وأطلقه فى الماء ، فسرعان ما ألقت سائر الخراف بنفسها فى الماء ، وراء ذلك الخروف ، واحداً بعد الآخر ؛ وأسرع التاجر يعدو وراءها حتى إذا لم يبق منها غير واحد ، أخذ يعدو محاولا أن يلحق به ، فلما ألقى الخروف بنفسه فى الماء ، قفز التاجر نفسه وراءه . وبذلك اكتملت هذه الصورة المضحكة التى تصور لنا مدى الانسياق للجماعة ، تحت تأثير المحاكاة !